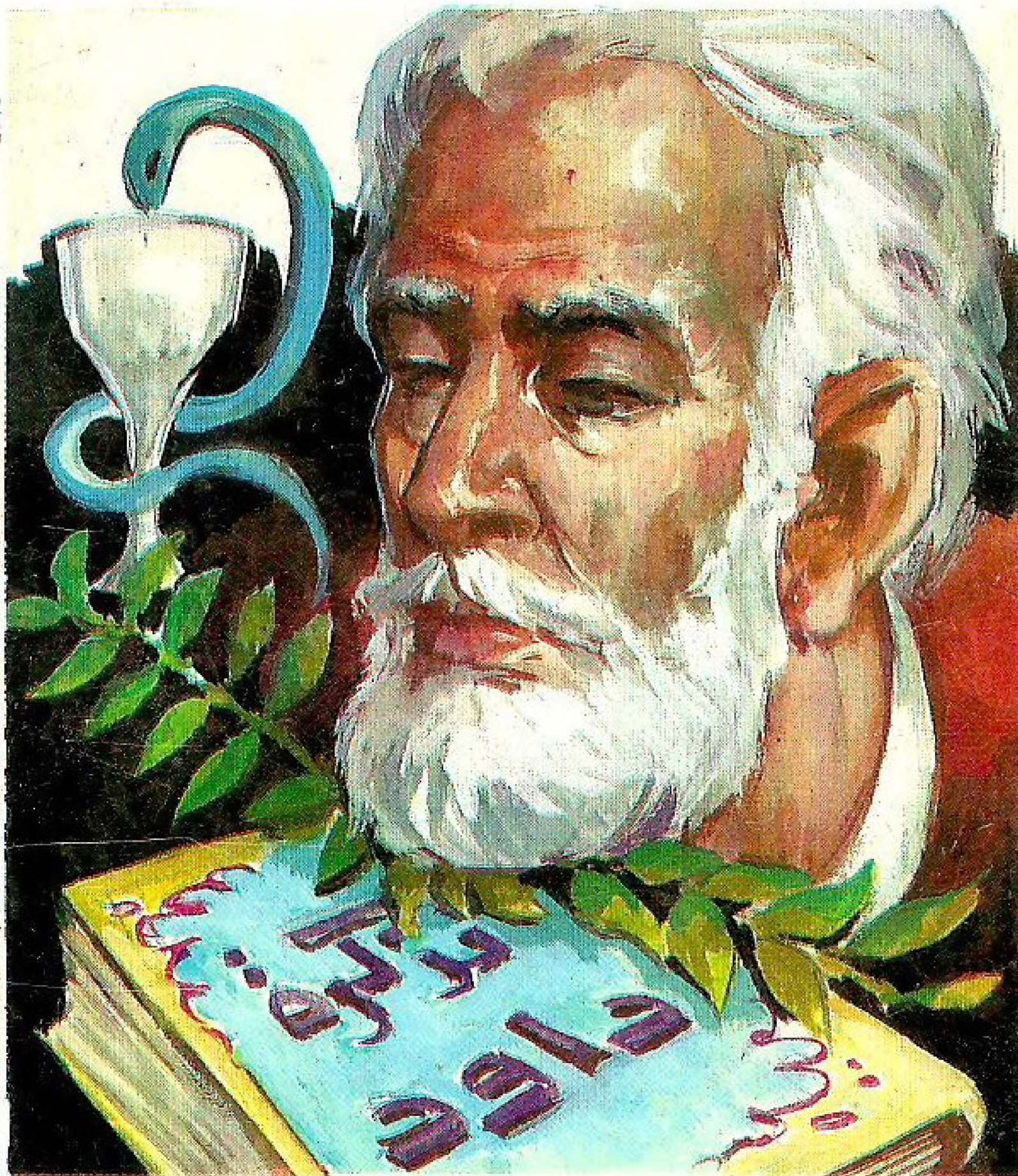


علماء
العرب



الأنطاكى

أبو الصيدلة



تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

مركز الأهرام
للترجمة والنشر



علماء
العرب

(٢٠)

الأنطاكي

أبو الصيدلة



تأليف : سليمان فياض

رسوم : اسماعيل دياب



نور القلب

كان « دَاوُد » الصَّبِي يسير في حدائق « أنطاكية » (شمال
غربي سوريا) ، مع طبيبه الفارسي « بَهزَاد » ، بعد أن نجح
الطبيب في شفائه من مرضه الطويل .

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر

مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة

تليفون ٥٧٤٧٠٨٣ - تليكس ٩٢٠٠٢ يو ان

وكان « داؤد » كيف البصر ، فقد وُلِدَ لا يرى من الدنيا شيئاً . وأخذ الطبيب يصفُ لداؤد بالكلمات ما لا يراه . وداؤد يُنصِتُ لطبيبه ، دون أن يلتفت إليه ، ويسمع وصفه في سُكون ، دون أن يبدو عليه أى انفعال . وحين انتهى الطبيب من وصفه لما يراه ، قال له « داؤد » :

- أصواتُ الطيور ، والمياه المنحدرة (النازلة) فى سَفْحِ الجبل ، ونسيمُ الهواء بين التلال والهضاب ، تُحدثني بكل هذا الوصف يا سيدي ، وكأنني أراه بعينين مُبصرتين .

ونظر إليه « داؤد » بعينين واسعتين ، ساكتي السواد ، وكأنهما ثُبُيران ، ثم قال :

- لكن ، كم تمنيتُ يا سيدي أن أرى هذه الألوان ، التي ذكرتها لي : الأحمر ، والأصفر ، والأزرق ، والأخضر ، والأبيض ، والأسود ، وما بينها من درجات الألوان ، ولو للحظة واحدة ، تبقى في ذاكرتي إلى الأبد .

وكاد الطبيب « بهزاد » أن يُعبر عن تأثره وانفعاله بالبكاء ، رثاءً لحال « داؤد » ، وإشفاقاً عليه ، لكنه فوجيء بـداؤد يتسِم ، ثم يضحك ، ويشدُّ بيده على يده ، قائلاً :

- لا تُشفق علي يا سيدي ، فمعي رحمةُ الله بى . لقد منحني الله عقلاً ، أرجو أن يكون راجحاً ، وسمْعاً قوياً ، يُعوّضني ، مع عقلي ، عن نعمةِ البصر .

عندئذ قبل الطبيب « بهزاد » داؤد ، فى جبينه ، قائلاً له :

- تذكر دائماً يا داؤد ما قلته لى الآن . فذلك هو الإيمان ، والإيمان بالله ، وبالحياة ، يعصمك (يحفظك) يا بُنى ، من كل ضعف ، أو حزن ، أو يأس .

وعاد « داؤد » و « بهزاد » يسيران معا ، ويدُ أحدهما فى يد الآخر . وكان « بهزاد » يوجّه « داؤد » فى سيرهما ، بضغطاتٍ خفيفةٍ من يده ، يُمنّةً ويُسرّةً ، وأعلى وأسفل ، وهما ينزلان منحدراً ، أو يصعدان مُرتفعاً . و « داؤد » يستجيبُ لضغطةِ يد « بهزاد » فى يسرٍ (سهولة) . وعجب « بهزاد » لأن « داؤد » فى سيره معه ، يسيرُ منتصبَ القامة ، مشدودَ الرقبة ، مرفوعَ الرأس ، لا يميلُ رأسه يُمنّةً أو يُسرّةً ، فى قلقٍ متوترٍ ، مثل أكثر من فقدَ البصر . وهمس « بهزاد » لنفسه : « إنه يرى بنور القلب » .

سأعيش على ذاكرتي

اجْتَازَ « بَهْزَادُ » وَ « دَاوُدُ » حَدَائِقَ « أَنْطَاكِيَّةِ » الشَّرْقِيَّةِ ،
وَتَوَغَّلَا مَعاً فِي الْجَبَلِ الْمُجَاوِرِ لِأَنْطَاكِيَّةِ ، صَاعِدَيْنِ إِلَى الْقَلَاعِ
الرُّومَانِيَّةِ الْأَثَرِيَّةِ الضَّخْمَةِ ، فَوْقَ قِمَمِ الْجَبَلِ ، وَبَيْنَ ذُرَاهِ
(قِمَمِهِ) الْمَتَدَرِّجَةِ الْارْتِفَاعِ .

وَرَاخَ الطَّبِيبُ يَحْدِثُ « دَاوُدَ » عَنْ تِلْكَ الْقَلَاعِ ، وَكَيْفَ
أَنَّهَا تُشَكِّلُ قَوْسًا وَاسِعًا ، يُحِيطُ بِأَنْطَاكِيَّةِ ، وَيَحْكِي لَهُ
الْحِكَايَاتِ عَنْ أَسْوَارِ « أَنْطَاكِيَّةِ » الْهَائِلَةِ الْمَحْصَنَةِ ، الْمُمْتَدَّةِ فَوْقَ
الْجَبَلِ ، وَبَيْنَ الْقَلَاعِ ، مَسَافَةً سِتَّةَ عَشَرَ مِثْلًا ، وَعَنِ الْأَبْرَاجِ
الدَّفَاعِيَّةِ فِي الْأَسْوَارِ وَالْقَلَاعِ . ثُمَّ قَالَ لَهُ :

- بَيْنَ كُلِّ بُرْجٍ وَآخَرَ ، يَا دَاوُدُ ، سَبْعُونَ خُطْوَةً بِالتَّمَامِ .

فَضَحِكَ « دَاوُدُ » وَقَالَ :

- عَرَفْتُ ذَلِكَ بِنَفْسِي يَا سَيِّدِي ، فَقَدْ أَحْصَيْتُ عِدَدَ
خَطَوَاتِي ، بَيْنَ كُلِّ بُرْجٍ وَبُرْجٍ ، تَحَدَّثْنِي عَنْهُ .

فَقَالَ لَهُ « بَهْزَادُ » بَدَهْشَةً :

- هَلْ تَعُدُّ خَطَوَاتِكَ فِي السَّيْرِ يَا دَاوُدُ ؟



فقال له « دَاوُد » :

- نعم يا سيدي ، وأحسبُ عددها كلما انعطفتُ يَمَنَةً
أو يُسْرَةً ، وكلما انحدرتُ أو صعدتُ ، فإنني أحبُّ أن ألفَ
(اعتاد) الأماكن ، وكأنَّها بيتي ، حتى إذا ما سرتُ فيها
وحدى ، لم أفقدُ طريقى ، وأضلَّ في سِرى ، أو أظنَّ أنني
أصعدُ ، على حين أنني أنحدرُ ، أو أتوهم أنني أنحدرُ ، على
حين أنني أصعدُ ، فأتعثرُ في سِرى ، أو أسقطُ على وجهي .
أريدُ أن أتذكرَ كلَّ طريقٍ جيِّداً . فعلى ذاكرتى ساعيشُ بقيَّةَ
عُمري .

فقال له « بَهْزَادُ » بإعجاب :

- أنارَ الله لك بصيرتك يا دَاوُد . وأحسبُ أنك ستكونُ
أيضاً ، بحاجة إلى عصا ، تتوكأُ (تستند) عليها ، وتحسُّسُ
بها طريقك ، حين تسيرُ وحيداً بلا رفيق .

الحواريُّ حبيب النجار

توقف « بَهْزَادُ » و « دَاوُد » ، أمام قلعة شاهقة
(عالية) . وقال له « بَهْزَادُ » :

- هذه القلعة الضخمة بناها الإمبراطور البيزنطي « نقفور
فوكاس » وقد جعلها الظاهر « بِيَرَسُ » أنقاضاً ، والسببُ
هو ..

فقاطعه « دَاوُد » قائلاً :

- السببُ تحصنُ الصليبين بها ، أثناء احتلالهم لِديار
الشَّام . أعرف ذلك يا سيدي . حكاه لي أبي .
فضحك الطبيب وقال له :

- وما الذي تعرفه أيضاً يا دَاوُد ؟

فقال له « دَاوُد » :

- بين أنقاض هذه القلعة ، يوجدُ قبرُ الحواريِّ « حبيبُ
النَّجَّار » الذي مات شهيداً .

فقال له « بَهْزَادُ » :

- فاعلم يا دَاوُد أن حبيباً هذا ، كان اسمه « سيلبيوس »
وأنه كان أوَّل من آمنَ بعيسى بن مريم ، من أهل « أنطاكية » ،
وأنَّ المسلمين يُسمونه « حبيبُ النَّجَّار » . ويُزورون قبره إلى
اليوم ، مثلما يزوره المسيحيون .

وانحدر الاثنان : « داود » و « بهزاد » ، مارّين في نزولهما من الجبل ، بأهم آثار « أنطاكية » ، حتى بلغا « نهر العاصي » ، فعبرا فوقه قناطر معلقة ، لا تزال أطلالها ، وبعض آثارها ، باقية إلى اليوم .

مدينة الصناعات

كانت « أنطاكية » آنذاك ، أكبر مركز للتجارة بين الشرق والغرب . فعندها كانت تلتقي الطرق الموصلة بين النهر والبحر ، بالطرق البرية التي تؤدي من الشام إلى آسيا الصغرى (تركيا الآن) .

وكانت « أنطاكية » مركزاً من مراكز صناعات : الحرير ، والصابون ، ومزرعة من مزارع : القمح ، والزيتون . وكانت نواحيها هنا وهناك ، في الجبل ، مثلما في الوادي ، شاهدة على كثير من الزلازل ، التي تعرضت لها « أنطاكية » عبر القرون ، وبرغم آثار الزلازل ظلت هذه المدينة بساطاً من الخضرة ، رائع الجمال ، بجانب جبال « كازيوس » العارية الجرداء ، وأشهرها جبل « سيلبيوس » المعروف بجبل « حبيب النجار » .

نهر الأسماك

دخل « داود » مع طبيبه الفارسي « بهزاد » إلى بيت أبيه « عمر الأنطاكي » ، مختار (عمدة) قرية « حبيب النجار » وكانت قرية قريبة من « أنطاكية » . وكان أبوه هو أغنى أغنيائها ، فله في القرية ، وفي « أنطاكية » متاجر وعقارات ، وله حول القرية مزارع شاسعة ، مزرعة بالقمح والزيتون . والتأم شمل الأسرة ، مع « بهزاد » ، حول مائدة الطعام . وكانت مائدة حافلة بالأسماك : المشوية ، والمقلية ، والمسلوقة ، يتوسطها طبق واسع ، به أسماك ثعابين الماء ، التي يحبها « داود » ، ويفضلها على كافة الأسماك ، فلا عظام تذكر بها ، ولا أشواك . وضحك أبوه ، وهو يقدم له ملعقة وشوكة خشبيتين ، كانت تشتهر بصنعتهما سواحل الشام ، وقال :
- من حسن حظك ، يا داود ، أن نهر العاصي مليء على الدوام بثعابين الماء .

وحين انتهى الكل من الطعام ، قدم لهم خدم الدار (البيت الكبير) حلوى الشام ، ثم قدموا لهم طسوت النحاس ، وصابون أنطاكية ، وصبوا على أيديهم مياه الأباريق النحاسية ، الدقيقة النقوش .

أَحَبُّكَ وَلَدِي

ذاتَ نَهَارٍ ، قَالَ « بَهْزَادُ » لِعُمَرَ الْأَنْطَاكِيِّ :

- أَنْ لَضَيْفِكَ « بَهْزَادُ » أَنْ يَرْحَلَ أَيُّهَا الْمُخْتَارُ
(العمدة) . فَقَدْ شَفَى ابْنُكَ « دَاوُدُ » مِنْ مَرَضِهِ ، وَعَافَاهُ اللَّهُ .
وَلَا أُوصِيهِ إِلَّا بِالْإِحْتِرَاسِ مِنَ الْجُلُوسِ عَلَى الْأَحْجَارِ الرُّطْبَةِ ،
حَتَّى لَا يُعَاوِدَهُ بَرْدُ الْحَوْضِ ، وَالْفَخِذَيْنِ .

عِنْدَيْدِ فُوجِيَّ الرَّجُلَانِ بِصَوْتِ « دَاوُدَ » يَقُولُ لِأَبِيهِ
بِرَجَاءٍ :

- لَا تَأْذَنْ لِي يَا أَبِي فِي الرَّحِيلِ عَنْ أَنْطَاكِيَّةَ ، فَإِنَّا بِحَاجَةٍ
إِلَيْهِ الْآنَ ، وَأَنَا سَلِيمٌ مُعَافٍ أَكْثَرَ مِمَّا كُنْتُ فِي مَرَضِي .

كَانَ « دَاوُدُ » قَدْ دَخَلَ الْقَاعَةَ الْكَبِيرَةَ لَتَوِّهِ (حَالاً) وَسَمِعَ
مَا قَالَهُ « بَهْزَادُ » لِأَبِيهِ . وَقَالَ الْأَبُ لِلطَّبِيبِ ضَاحِكاً :

- هَا أَنْتَ قَدْ سَمِعْتَ جَوَابِي أَيُّهَا الطَّبِيبُ ، عَلَى لِسَانِ
« دَاوُدَ » . أَحَبُّكَ وَلَدِي ، وَتَعَلَّقَ بِكَ .

فَقَالَ « دَاوُدُ » لِأَبِيهِ :

- الْحُبُّ نَعَم . لَكِنْ حُبِّي لَنْ يَمْنَعَهُ مِنَ الرَّحِيلِ عَنَّا ذَاتَ

يَوْمٍ . لَكِنِّي بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ الْآنَ ، لِأَتَعَلَّمَ عَلَى يَدَيْهِ : اللُّغَةَ
الْفَارْسِيَّةَ ، وَعِلْمَ الطَّبِّ ، وَعِلْمَ الدَّوَاءِ . وَلَنْ تَضِنَّ (تَبْخُلَ)
عَلَيْهِ يَا أَبِي بِمَالٍ . وَلَنْ تَحْرِمَهُ إِقَامَتُهُ مَعَنَا ، مِنْ مُمَارَسَةِ طَبِّهِ ، بَيْنَ
أَهْلِ « أَنْطَاكِيَّةِ » وَضَوَاحِيهَا .

عِنْدَيْدِ قَالَ الطَّبِيبُ الْفَارِسِيُّ لِدَاوُدَ بَدَهْشَةَ :

- أَعَلَّمَكَ الْفَارْسِيَّةَ يَا بُنَى ، لَا بَأْسَ بِذَلِكَ . لَكِنْ ..
الطَّبِّ .. كَيْفَ .. وَ ..

فَقَالَ « دَاوُدُ » بِمِرَارَةٍ :

- كَيْفَ وَأَنَا لَا أَرَى ، وَلَا أَكْتُبُ وَلَا أَقْرَأُ ؟ سَأَقُولُ لَكَ
كَيْفَ يَا سَيِّدِي . الْعِلْمُ مَعْلُومَاتٌ . وَالْعِلْمُ يُلَقَّنُ ، وَيُثَبَّتُ فِي
الذَّاكِرَةِ لِمَنْ يَشَاءُ . وَالطَّبِّ عِلْمٌ بِدَوْرِهِ . وَالْعِلَاجُ يَتِمُّ بِالسُّؤَالِ
وَالْجَوَابِ لِلْمَرِيضِ ، وَالتَّفَكُّيرِ يُشَخِّصُ الْمَرَضَ ، وَالْأَيْدِي
تَحْسِسُهُ .. أَلَا يُمَكِّنُ إِذْنُ لِفَاقِدِ الْبَصَرِ أَنْ يَتَعَلَّمَ الطَّبِّ ، وَيُعَالِجَ
بِالدَّوَاءِ ، مُسْتَعِيناً بِسَوَاهِ ، حَتَّى وَهُوَ بِلَا بَصَرٍ ؟

وَجِمَ (سَكَتَ) الطَّبِيبُ الْفَارِسِيُّ ، ثُمَّ قَالَ بِاسْتِسْلَامٍ :

- غَلَبَتْنِي يَا بُنَى . سَأَقْبَلُ ذَلِكَ يَا دَاوُدُ ، وَأَعَلَّمَكَ اللُّغَةَ
الْفَارْسِيَّةَ ، وَمَا أَعْرِفُهُ مِنَ الطَّبِّ الْفَارِسِيِّ وَالْعَرَبِيِّ أَيْضاً ، لَكِنْ .

إذا أردت أن تفوقني في العلم يوماً ، فشُد الرحال إلى آسيا الصغرى (تركيا) وتعلم اليونانية هناك ، وتعلم معها الطب اليوناني .

عندئذ قال « عمر » لبهزاد :

- من الأفضل ، له ولك ، أن نبعث بداود إلى دمشق ، ونلحقه طالباً ببيمارستان (مستشفى) دمشق ، ويتعلم به الفارسية ، واليونانية ، والطب ، والدواء .

فقال له « داود » :

- يا أباي . إن أحداً من أطباء دمشق ، لن يسمح بتعليم الطب لمن فقد بصره . سيقولون : الطب بحاجة إلى عينين ، فالطب أكثر من أي مهنة أخرى بحاجة إلى عينين . فلا أمل لي في تعلم الطب إلا من طبيبنا الفارسي هذا .

فقال « بهزاد » لعمر الأنطاكي :

- نطق داود بالصواب يا أبا داود . وسأبدل جهدي في تعليمه ما عشت . ومن يدرى . قد أوتر البقاء في بلدتكم الجميلة بقيّة عمري . لكنني ، يا أبا داود ، بحاجة إلى أهلي ، وهم مقيمون ، في « شيراز » بفارس (إيران) ، فلسوف تمرّ السنون ، ويطول مقامي مع « داود » .

فقال « عمر » لبهزاد :

- لا تحمل هماً لهذا الأمر . غداً نرسل من يأتي بكّل أهلِكَ إليك . ونشرع (نبداً) في إقامة بيتٍ فسيحٍ ، لك وللأهل ، في قرية « حبيب النجار » .

النفس والجسد

كان الطبيب « بهزاد » موسوعة « دائرة معارف » حيّة ، متحركة ، تسعى على قدمين . كان بارعاً في علوم : المنطق ، والرياضيات ، والطبيعات ، براعته في عزف المقطوعات الموسيقية الفارسية ، والعربية ، على العود . وكان يعرف اللغة العربية معرفته بلغة قومه الفارسية . وكان يحبّ التدريس لسواه ، مثلما يهوى علاج مرضاه ، لكنّه لم يكن راغباً في أن يؤلّف في أي علم . فبعض الناس ، ممن هم مثله ، يؤثرون (يفضلون) الحياة بعلمهم ، ونفع الناس به ، على أن يكونوا مؤلفين للعلوم . وكذلك كان هذا الطبيب الفارسي .

وراح « داود » يتعلم على يدي « بهزاد » ، شهراً بعد شهر ، وعاماً بعد عام ، كلّ ما يعرفه « بهزاد » من العلوم ، فقد أبا عليه « بهزاد » أن يدرس الطب ، قبل أن يبدأ بدراسة

.. وحن دور الطب

استجاب « داود » لبرنامج (خطة) أستاذه في تعليمه ،
وتقدم في دراسته للغة الفارسية ، ولعلوم لا بُدَّ منها لمن يدرس
الطب ، حتى جاء يومٌ وعى فيه عقله الناضج ، وحفظت فيه
ذاكرته القويّة ، لغة الفرس ، ومعارف العلوم الدنيويّة التي
لا يعرفها إلى زمانه سوى العلماء .

وكانت قد مرّت خمس سنوات ، بلغ معها « داود »
العشرين من العمر ، فأخذ « بهزاد » يعلمه ما يعلمه من معارف
الطب ، تشخيصاً وعلاجاً ، وأعراضاً وأمراضاً ، وأدوية مفردة
أو مركّبة ، من النبات ، والأحجار ، والحيوان ، والمعادن .

واعتاد « بهزاد » أن يصحب تلميذه « داود » معه ، كلما
ذهب لزيارة مريضٍ من مرضاه ، في قرى « أنطاكية »
وضواحيها ، ويصف له بصوتٍ مسموع حال المريض ،
وأعراض مرضه ، ويجعله يتحسّس بيديه مواطن (مواضع)
الداء (المرض) في جسد المريض ، ويذكر له الدواء الشافي ،
لمرضاه .

واعتاد « داود » أن يسمع في جولاته تهامس الناس :



المنطق ، والطبيعات ، والرياضيات ، المعروفة في زمانه ؛
بل وراح يحبّه إلى الموسيقى ، ويعلمه كيف يسمع ، وكيف
يعزف ، حتى يتسع أفقه العقلي لمعارف الطب ، وهي معارف
متشابهة ، مُعَقَّدة ، بين النفس والجسد ، فالنفس تُؤثّر في
الجسد صحّةً ومرّضاً ، والجسد يُؤثّر في النفس صحّةً ومرّضاً ،
وحتى يرقّ قلبه بالموسيقى لمرضاه ، مثلما تطيب نفوس هؤلاء
المرضى بسماع الموسيقى ، ورؤية الحدايق والبساتين .

« فاقِدُ البَصَرِ وَيَدْرُسُ الطَّبَّ ؟! لم نَسْمَعْ بهذا مِنْ قَبْلِ » .
واعْتَادَ « دَاوُدَ » أَلَا يَحْزَنَ أَوْ يَفْرَحَ بِمَا يَسْمَعُهُ مِنْ تَعْلِيقاتِ
الاسْتِنْكَارِ ، أَوْ الْإِعْجَابِ .

واعْتَادَ « بَهْزَادُ » أَنْ يَفَاجِيءَ « دَاوُدَ » بِالْأَسْئَلَةِ ، حَوْلَ
مَرَضِ مَرِيضٍ ، فَكَانَ « دَاوُدَ » يَجِيبُهُ بِاسْتِفَاضَةٍ ، وَدِقَّةٍ ، إِجَابَةً
تَجْعَلُ « بَهْزَادَ » يَصِيحُ لَهَا فَرَحًا . وَرُبَّمَا صَفَّقَ لَهُ فِي إِعْجَابٍ ،
ثُمَّ يَقُولُ لَهُ :

- حَمَى اللَّهُ لَكَ عَقْلَكَ يَا دَاوُدَ ، وَأَبْقَى لَكَ ذَاكِرَتَكَ ،
وَنَوَّرَ بِصِيرَتِكَ إِلَى الْأَبَدِ .

وَتَدَرَّجَتْ ثِقَةُ « بَهْزَادَ » بِدَاوُدَ ، فَرَأَى يَتْرَكَ لَهُ فَحْصَ
الْمَرِيضِ ، يَتَسَمَّعُ بِأُذُنِهِ نُبْضَاتِ قَلْبِهِ ، وَيَجِسُّ (يَتَحَسَّسُ)
بِأَصَابِعِهِ مَوَاطِنَ الْأَلَمِ فِي جَسَدِهِ ، وَيَدُقُّ نَاقِرًا مَوَاطِنَ بَعِينِهَا مِنْ
صَدْرِ الْمَرِيضِ وَظَهْرِهِ ، وَلَا يَفْتَأُ (لَا يَكُفُّ) يَسْأَلُ عَنْ صَحْوِهِ
وَنَوْمِهِ ، وَهَضْمِهِ وَبَوْلِهِ ، وَنَوْبَاتِ مَرَضِهِ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ ، ثُمَّ
يَلْتَفِتُ لِأُسْتَاذِهِ قَائِلًا :

- أَرَى أَنَّ مَرَضَهُ كَذَا ، وَأَنَّ عِلَاجَهُ بِكَذَا وَكَذَا ، وَغِذَاءَهُ
يَكُونُ بِكَذَا وَكَذَا .

آخِرُ الدَّرُوسِ

وَكَانَ « دَاوُدَ » قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعُمَرِ خَمْسَةً وَعِشْرِينَ عَامًا ،
حِينَ فَاجَأَهُ « بَهْزَادُ » ذَاتَ صَبَاحٍ بِقَوْلِهِ :

- لَا أَعْلَمُ يَا دَاوُدَ مِنَ الْيُونَانِيَّةِ الْكَثِيرِ ، وَلَكِنِّي صَحَبْتُ
فِي بِلَادِ فَارِسَ تُجَّارًا مِنَ الرُّومِ ، وَاسْتَمَعْتُ إِلَيْهِمْ ، وَهُمْ
يَتَحَدَّثُونَ الْيُونَانِيَّةَ ، وَاللَّاتِينِيَّةَ ، وَتَعَلَّمْتُ مِنْهُمْ مَا يَكْفِي لِلْحَدِيثِ
مَعَ الْيُونَانِيِّينَ وَالرُّومَانِيِّينَ . وَقَدْ آنَ لَكَ أَنْ تُسَافِرَ يَا دَاوُدَ إِلَى
بِلَادِ الرُّومِ فِي الْأَنْاضُولِ ، وَبِيزَنْطَةِ . وَلِذَلِكَ سَتَحْفَظُ عَنِّي
مَا أَعْرِفُهُ مِنَ اللَّغَتَيْنِ الْيُونَانِيَّةِ وَاللَّاتِينِيَّةِ ، أَنْتَ وَمَنْ سَيَكُونُ رَفِيقًا
لَكَ ، فِي سَفَرِكَ إِلَى تِلْكَ الْبِلَادِ ، وَإِقَامَتِكَ هُنَاكَ . وَمِنْ حُسْنِ
حَظِّكَ أَنَّ دِيَارَ الْأَنْاضُولِ كُلَّهَا ، قَدْ خَضَعَتْ لِحُكْمِ الْأَثَرَاكِ
الْعُثْمَانِيِّينَ ، مِنْذَ أَنْ فَتَحَ مُحَمَّدُ الْفَاتِحُ « الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ » ، وَلَسَوْفَ
تَكُونُ فُرْصَةً لَكَ ، وَلِرَفِيقِكَ ، لَتَعْلَمَ اللُّغَةَ التَّرْكِيَّةَ أَيْضًا .

وَامْتَثَلَ (أَطَاعَ) « دَاوُدَ » لِأُسْتَاذِهِ الْحَبِيبِ ، وَحَفِظَ عَنْهُ
مَعَ مَنْ سَيَكُونُ رَفِيقَهُ فِي سَفَرِهِ ، وَمُرْشِدَهُ بَقِيَّةَ عَمْرِهِ ، أَلْفَاظًا ،
وَجُمْلًا ، مِنْ لُغَةِ الْيُونَانِ ، وَلُغَةِ الرُّومَانِ ، وَالطَّبِيبُ الْمَعْلَمُ
يَضْبِطُ لِهَما النُّطْقَ ، وَيَدُقُّ مَعَهُمَا فِي مَخَارِجِ الْحُرُوفِ ، وَيُوضِّحُ

لَهُمَا الْمَعَانِي ، وَيُحَدِّدُ لَهُمَا مَوْضِعَ كُلِّ سُؤَالٍ ، وَمَوْطِنَ كُلِّ
جَوَابٍ .

وداع

كَانَ رَفِيقُ « دَاوُدَ » ، هُوَ « أَحْمَدُ » ، وَكَانَ ابْنُ عَمِّ لَهُ ،
وَكَانَ مُعَلِّمًا مِنْ مُعَلِّمِي الصَّبِيَّانِ ، وَقَدْ وَعَدَ أَبَا دَاوُدَ أَنْ يَنْذِرَ
مَا بَقِيَ مِنْ عُمرِهِ ، لِيَكُونَ رَفِيقًا لابْنِ عَمِّهِ « دَاوُدَ » إِلَى الْأَبَدِ .

وَكَانَ الْاِثْنَانِ : « دَاوُدَ » وَ « أَحْمَدُ » ، قَدْ صَارَا مُسْتَعِدَّيْنِ
لِلسَّفَرِ وَالْإِغْتِرَابِ وَالتَّرَحُّالِ ، طَلَبًا لِلْعِلْمِ حَيْثُمَا كَانَ . وَقَالَ
« عُمَرُ » لَوْلَدِهِ « دَاوُدَ » ، قَبْلَ أَيَّامٍ مِنْ سَفَرِهِ :

- إِنْ شِئْتَ زَوْجَنَّاكَ ، حَتَّى لَا تَفْتِنَكَ نِسَاءُ الرُّومِ ، وَحَتَّى
يَخْلُوَ بِأَلْكُ لَمَّا تَطْلُبُهُ مِنَ الْعِلْمِ يَا دَاوُدَ .

لَكِنْ دَاوُدَ قَالَ لَهُ :

- لَا زَوَاجَ لِمَنْ يَطْلُبُ عِلْمًا مِثْلِي ، وَيَتَحَرَّكُ مَعَ رَفِيقٍ ،
إِلَّا حِينَ يَسْتَقِرُّ بِي الْمَقَامُ ، فِي مُقْبِلِ السَّنِينَ .

وَوَدَّعَ « دَاوُدَ » وَابْنُ عَمِّهِ الْأَهْلَ ، وَالطَّبِيبَ الْفَارِسِيَّ ،
وَرَكِبَا فَرَسَيْنِ ، وَاتَّجَهَا إِلَى الشَّمَالِ . يَتْبَعُهُمَا خَادِمٌ عَلَى بَغْلَةٍ ،



وكانت تسير خلف الكل بعثان أخریان ، محملتان يقرب
الماء ، والأطعمة المجففة ، والمقددة .

تاريخ مدينة

في الطريق قال ابن العم « أحمد » لداود :
- الله وحده يعلم متى نعود إلى أنطاكية .

فقال له « داود » :

- أكثر مكان ساجن إليه بها ، هو أطلال هذا المسرح
الروماني . ففوق مقاعده الحجرية ، كنت أجلس ، وأفكر ،
وأستعيد ذروسي ، وحيداً ، عصر كل يوم .

والتفت « داود » إلى ابن العم ، وأضاف :

- الغريب أنني لا أعرف حتى الآن تاريخاً لأنطاكية ،
مثلما أعرف جغرافيتها وأهلها . أنت يا ابن العم معلم ،
فأخبرني .

فضحك ابن العم ، وقال :

- حين انتشرت المسيحية ، صار في « أنطاكية » ثلاثة

بطارقة للمذاهب : الملكانية ، والمارونية ، واليعقوبية . وقد
سقطت أنطاكية في قبضة الفرس ، ثم استردها الرومان ، ثم
فتحها العرب على يد « أبي عبيدة بن الجراح » ، ثم استولت
عليها الإمبراطورية البيزنطية ، فالسلاجقة الأتراك ، فالصليبيون ،
فالمماليك المصريون . وهما هي أخيراً قد خضعت للأتراك
العثمانيين ، ربما في العام الذي ولدت أنت فيه ، أو بعده
بقليل .

وكانا يواصلان سيرهما بالجياذ والبغال ، ويتوقفان مع الليل
في الطريق ، ويأويان إلى خان (نزل = فندق صغير) صغير ،
على الطريق ، من هذه الخانات ، المستعدة في الليل والنهار ،
لراحة المسافرين .

قرن الحرب

منذ العقد الثاني ، من القرن السادس عشر الميلادي ،
الذي عاش فيه « داود بن عمر الأنطاكي » ، وقد استولى
العثمانيون على الشام ، ومصر ، وغربي جزيرة العرب
(الحجاز) ، وشمال غربي فارس ، والعراق ، وجزيرتي :
رودس ، وقبرص ، وبلاد المجر بأسرها . وبسطوا سيادتهم

أهلها بحدّ السيف على مذهب الشيعة ، مثلما فعلوا من قبل ،
في بلاد ما وراء النهر (شرقي بحيرة قزوين) وفي أفغانستان .

وفي هذا القرن الذي عاش فيه « داود » ضعفت أسباب
الاتصال بين الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، وكانت لهذا
الضعف عواقب وخيمة (شديدة السوء) . فالفكر الفارسي
الإسلامي ، قد صار عاجزاً عن إثارة روح التقدم في العالم
الإسلامي .

وفي هذا القرن أثار البرتغاليون نذر شرور اقتصادية
خطيرة ، على المشرق العربي بأسره ، وخاصة مصر . فقد بلغ
« فاسكو دي جاما » بسفنه ومدافعه الحربية ، الهند ، عن طريق
رأس الرجاء الصالح ، وأقاموا مستوطنات عسكرية على طول
الساحل الشرقي لإفريقية ، وفي عُمان ، وهرمز ، وجزيرة
« سقطرى » اليمنية ، وشنوا حملات عسكرية على الحبشة ،
فتحوّلت التجارة بين الشمال والجنوب ، عبر دلتا النيل والبحر
الأحمر ، إلى طريق رأس الرجاء الصالح . وبدأ غنى مصر
الهائل ، والبندقية ، في الانحدار إلى مهاوى الفقر . ومهد هذا
الانحدار الطريق ، لكي يحتلّ العثمانيون مصر والشمال الأفريقي ،



الاسمية على الشمال الإفريقي كله . ولقد بلغت الإمبراطورية
العثمانية في هذا القرن أوج (قمة) اتساعها ، وعزّ سلطانها ،
وغاية شهرتها ومجدها ، قبل أن تبدأ في طريق انحدار طويل ،
لا يكاد يحسُّ به أحد .

وكان الروس ، بقيادة الإمبراطور « ايفان الرهيب »
يقومون بتطهير حوض « نهر الفولجا » ، ويردّون جيوش الدولة
الصفوية الشيعية إلى الورا ، فتوسّعوا في بلاد فارس ، وحملوا

وينزحوا (ينقلوا) إلى الأناضول خيرة العلماء ، والكتب ،
والعمالة الفنية الحرفية الماهرة .

وفي هذا القرن هاجم الجزائريون ، والتونسيون سواحل
أسبانيا ، وهاجم العثمانيون جبل طارق ، ومدينة « نيس »
(بفرنسا) ، ومدينة « أوترانتو » بإيطاليا ، وسواحل صقلية ،
واستولوا على بلاد البلقان بأسرها ، إلى بحر « الإذرياتيك » .

وهكذا كان القرن السادس عشر ، قرناً عاصفاً بالحروب ،
وتغير موازين القوى بين الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ،
فسرت (انتشرت) الانهيارات الاقتصادية في بلاد الشرق
والجنوب . ومع هذه الانهيارات بدأ التخلّف الثقافي والعلمي
والفني ، في الشرق والجنوب ، بقدر ما بدأت النهضة في بلاد
الشمال .

وكان على « داود بن عمر الأنطاكي » الكفيف البصر ،
ووسط هذا الدمار في المشرق كله ، أن يكون طبيباً عالماً ،
ومؤلفاً في الطب ، والصيدلة .

العودة إلى أنطاكية

أتقن « داود » خلال سنوات عديدة ، اللغة اليونانية
واللاتينية والتركية ، وحصل معارف الطب اليوناني مع ابن
عمه ، وعادامعاً إلى « أنطاكية » ، يحملان معهما ، على ظهور
البغال صناديق مملوءة بالكتب المنسوخة .

وحزن « داود » حين علم بخبر وفاة أبيه ، وأمّه ، وذهب
لزيرة قبريهما ، وجلس « داود » يقرأ الفاتحة على رُوحيهما .
وخاطب أباه ، في مثواه (قبره) ، بصوت مسموع ، قائلاً :
- وددت لو كنت مبصراً ، لأحمل في قلبي صورة
وجْهِك يا أبي .

وفوجيء « داود » بالطبيب الفارسي « بهزاد » ، يجلس
بجانبه ، ويقول له :

- رحلت أمك عنا أولاً ، وودّع أباك الدنيا بعدها ، قبل
شهر فقط يا داود . و « أنطاكية » بأسرها تنتظرك لتكون
رئيساً لقرية « حبيب النجار » ، وطبيباً لمرضاهها . وقد ترك لك
أبوك ثروة طائلة ضخمة ، فأنت ابنه الوحيد .

وبرغم حُزْنِ « داود » فقد فرح لسماع صوت معلّمه ،
فعانقه ، ومشى وإياه عائدين إلى بيت الأهل ، مع ابن العم .
وكانت خطى « داود » ما تزال تذكر طُرقات « أنطاكية » ،
ينحرف معها حيناً ، ويصعد معها حيناً ، وينحدر وإياها حيناً
آخر .

وفي بيت الأهل ، وقد انقشعت (زالت) غمامة
(سحابة) الحُزْنِ ، جلس « داود » وابن العم ، يُحدثان
« بهزاد » عن بلاد آسيا الصغرى ، والعُثمانيين ، والرومان
البيزنطيين ، الذين آثروا (فضّلوا) البقاء ، مع الأتراك ، في
المُدُن والقُرى . وكان « بهزاد » قد بلغ الغاية من الكبر في
السّن ، وآثر البقاء مع أهله في أنطاكية ، بعيداً عن بطش
الصّفويّين الشيعيين ، وصراعاتهم الحربيّة مع الأتراك العثمانيين .

سأرحل إلى مصر

وأعلن « داود » في الليل ، لبهزاد ، وأعيان قرية « حبيب
النّجار » ، أنّه سيُعادر أنطاكية إلى مصر . فمصر لا تزال داراً
للعلم والعلماء ، والمماليك لا يزالون يحكمون مصر ، من قبل
العُثمانيين ، فلم يتغير فيها شيء كثير ، عدا تدفق التجارة ،

عبرها ، بين الشمال والجنوب . وفي مصر ثمة علم كثير ،
ما يزال هو بحاجة إليه .

وتفهم أعيان القرية رغبة « داود » ، وعرضوا عليه شراء
ما ورثه من متاجر ، وعقارات ، ومزارع ، ليستعين بثمنها على
حياة وادعة في مدينة القاهرة .

وقال « بهزاد » بقلق على « داود » :

- كيف ترحل وحدك ، وتقيم وحدك ، في مدينة مثل
القاهرة ، وهي واسعة الأرجاء ، مزدحمة بالناس ؟

فسارع ابن العم يقول :

- عاهدت « داود » على البقاء معه . وسأظلّ له ، مثلما
كنتُ ، القاريء الذي يقرأ له ، والكاتب الذي يملئ عليه ،
والدليل الذي يسير معه في الطريق .

وضحك ابن العم ، وقال لداود :

- في مصر ، يا ابن العم ، ستتزوج من بنات مصر .

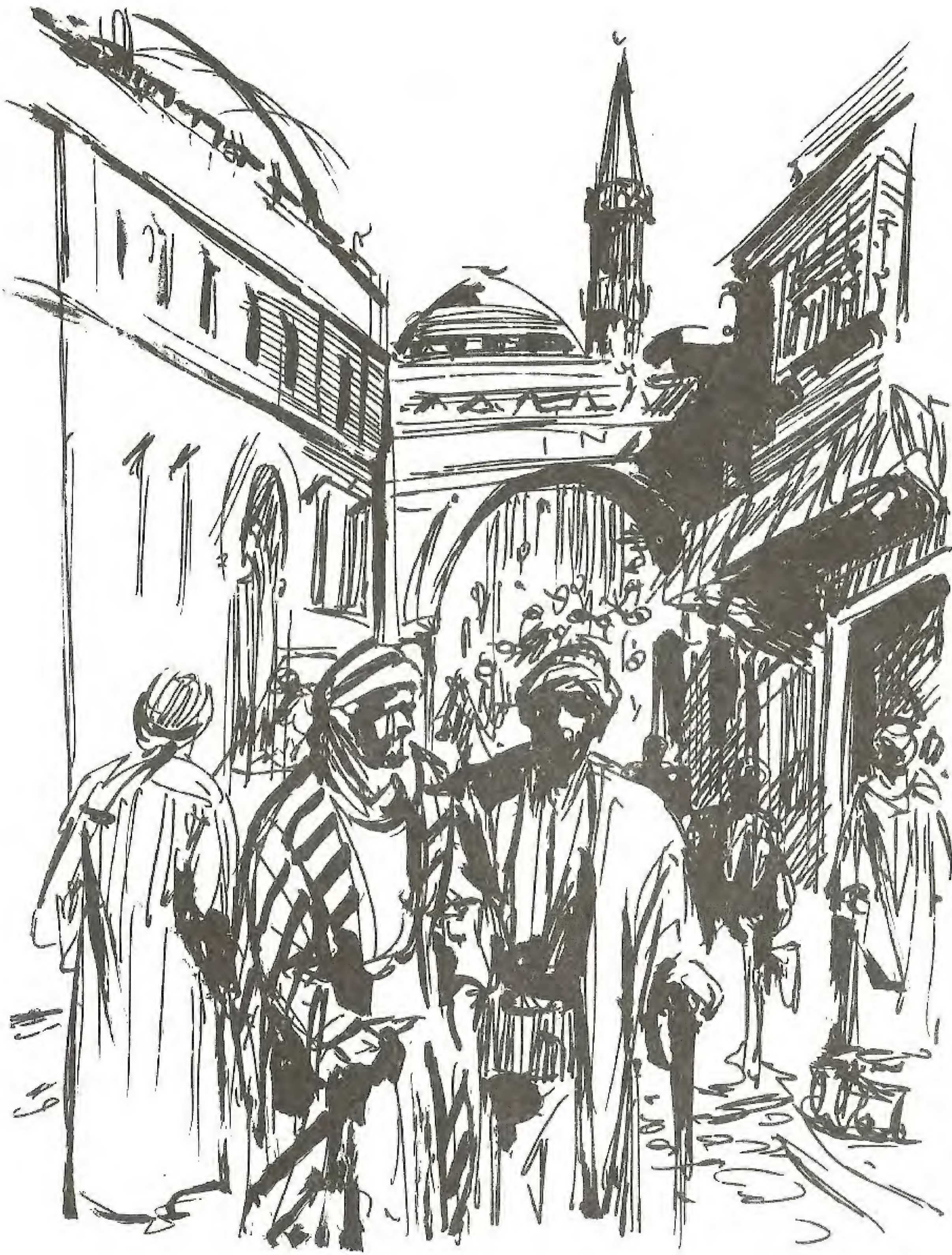
هنا المُقام

هَبَط « داوُد » وابنَ عمه ، أرضَ مصرَ ، واستقرَّ بحَيِّ
الأزهر في القاهرة . وولَّى « داوُد » وجهَهُ شَطْرَ (نَحْو)
البيمارستانات القاهريَّة ، وخاصةً البيمارستان المنصوري .
وكانتْ بها ، آنذاك ، مكتباتٌ غنيَّةٌ بكتبِ التراث ، وبالأطباء
العُلماءِ ، من أهلِ مصرَ ، ومن المهاجرين إليها ، هرباً من الفتنِ
والاضطراباتِ .

ووجد « داوُد » ، في القاهرة ، الملجأ ، والأمن ، والعلم ،
فالمدينة هادئةٌ ، لا يُحِبُّ أهلُها سفكَ الدماءِ ، والتدينَ بها
مُعْتَدِلٌ ، لا تَزُمَّتْ فيه ولا تقصير ، والمواطنة فيها حقٌّ للمُسلمِ
والمسيحيِّ واللاجئِ والمغترِبِ . واطمأن قلبُ « داوُد » ،
فقال لابن عمِّه :

— هُنا المُقامُ ، يا أحمد ، إلى أن يشاءَ الله .

وتزوَّج الاثنان ، وعكف « داوُد » في البيمارستان
المنصوري ، على كُتُبِ الطِّبِّ العربيَّة ، يقرأُ له ابنُ العمِّ ، ويُملي
هو عليه ملاحظاته ، فيُدوِّنُها (يكتُبُها) أولاً بأوَّل ، ليرجعَ
إليها حينَ يشاء .



دراسة منظّمة

في القاهرة ، وفي بیمارستان المنصوري ، درس « داود » ، دراسة منظمة ، كُتِبَ السابقين ، في علم الدواء (الصيدلة) ، عن الأدوية المفردة ، والمركبة ، والنباتية ، والحيوانية ، والمعدنية ، وعرف أسماءها التي يتعامل بها أطباء مصر ، ومصادرها ، وقواها ، وأهميتها في علاج الأمراض ، وعرف المزيد عن الأمراض ، وأعراضها ، وأسبابها ، وعلاجها ، وأضاف إليها ما عرّفه وهو بالشّام ، وتركيا ، فاجتمعت لديه معرفة طبية نباتية ، بلغ عددها ثلاثة آلاف نباتاً ، حصلها من كُتِبِ التراث العربية ، واليونانية ، والفارسية ، وقرأها بلغاتها ، وكانت قائمة علماء هذه المعرفة بالدواء ، كثيرة الأسماء ، غزيرة العطاء ، وبين هذه الأسماء ، كان ابن ربن الطبري ، والكِندي ، والرازي ، وابن العباس الأهوازي ، وابن الجزار ، وابن سينا ، والبيروني ، وابن ماجه ، وابن التلميد ، والعافقي ، والإدريسي ، وابن ميمون ، وابن البيطار ، وكوهين العطار .

وقدّر لداود أن يكون هو آخر العلماء العرب بالدواء ، وأن

يؤلف فيه ، هو الكفيف البصر ، أكبر وأخلد وأشهر كتاب ، في علم الدواء .

سرّ الحب

وداعت شهرة « داود » في بیمارستان ، ومدينة القاهرة ، وضواحيها ، كطبيب مُعالج للفقراء والأغنياء ، في حيّ الأزهر . فعُيِّنَ بالإمرستان المنصوري رئيساً للعشّابين في ذلك الحين (الصيادلة) . وتعزّزت مكانته في بیمارستان ، مع السنوات ، حتى دعاه إليه رئيس بیمارستان ذات ليلة ، وقال له :

- يادأود . آن لك أن تشغل مكاني ، رئيساً لهذا بیمارستان ، فقد كبرت في السنّ ، وأن لي أن أستريح من عناء العمل ، وقد اختارك الأطباء ، في هذا بیمارستان لتكون رئيساً لهم . إن قبلت ، سيُصنّدر الوالي العثماني ، قراراً بتعيينك في هذا المنصب . وأرى أن تقبله ، فلك من نور البصيرة ، وحبّ المهنة ، ما يجعلك أهلاً (جديراً) لهذا المنصب .

وقبل « داود » ، فقال له رئيس بیمارستان ، ضاحكاً :

– كَيْفَ أَحَبَّكَ النَّاسُ يَا دَاوُدُ ؟ الْعِلْمُ وَالْمَهَارَةُ لَا يَكْفِيَانِ
لِكَسْبِ قُلُوبِ الْأَغْنِيَاءِ وَالْفُقَرَاءِ .

فَقَالَ لَهُ « دَاوُدُ » بِتَوَاضُعٍ :

– هَذَا مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ . وَأُظِنُّ أَنَّ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى أَمْرَيْنِ :
فَأَنَا أَعْلَمُ النَّاسَ كَيْفَ يَحَافِظُونَ عَلَى صِحَّتِهِمْ بِالْوَقَايَةِ . وَكَيْفَ
يَعَالِجُونَ أَنْفُسَهُمْ حِينَ يَمْرَضُونَ ، خَاصَّةً فِي الْأَحْوَالِ الَّتِي
لَا تَدْعُو إِلَى اسْتِشَارَةِ الطَّبِيبِ .

ألقاب

وَمَنَحَتْ مَدِينَةُ الْقَاهِرَةِ ، عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَطِبَّاءِ ، وَالنَّاسِ
« دَاوُدَ بْنَ عُمَرَ الْأَنْطَاكِيِّ » أَلْقَاباً ، يَفْخَرُ بِهَا وَيَرْهُوَ أُمِّي عَالِمٍ
طَبِيبٍ ، وَبَيْنَ هَذِهِ الْأَلْقَابِ ، كَانَتْ أَلْقَابُ : أَبْقِرَاطُ زَمَانِهِ ،
وَالْعَلَّامَةُ الطَّبِيبِ ، وَالْحَكِيمُ ، وَالْمَاهِرُ ، وَالْفَرِيدُ ، وَالطَّبِيبُ
الْحَازِقُ (الْمَاهِرُ) ، وَالْعَالِمُ الْكَامِلُ ، وَ.. الصَّيِّدُ لَانِّي الضَّرِيرِ .

وَجَلَسَ « دَاوُدُ » ذَاتَ لَيْلَةٍ ، مَعَ ابْنِ عَمِّهِ ، وَقَالَ لَهُ :

– أَعِدْ لَنَا أَوْرَاقاً ، وَأَقْلَاماً ، وَأَحْبَاراً ، فَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى

أَلَّا تَذْهَبَ خَبِرَتِي بِالصَّيِّدَةِ مَعِيَ ، حِينَ أَوْدَعَ الدُّنْيَا . لَقَدْ
جَاوَزْتُ مِنَ الْعُمُرِ خَمْسَةَ وَخَمْسِينَ عَاماً يَا ابْنَ الْعَمِّ . وَصَارَ مِنْ
حَقِّ الْعِلْمِ عَلَيَّ ، أَنَّ أُدَوِّنَ (أُسَجِّلُ) خَبِرَتِي ، وَمَعَارِفِي ،
بِالدَّوَاءِ .

وَكَانَ السُّلْطَانُ الْعُثْمَانِيُّ « سُلَيْمَانُ الْأَوَّلُ » قَدْ تُوفِّيَ فِي
ذَلِكَ الْعَامِ ، وَتَوَلَّى مَكَانَهُ السُّلْطَانُ سَلِيمُ الثَّانِي ، وَوَلَّى أَمْرَ
مِصْرَ ، مِنْ قَبْلِ الْعُثْمَانِيِّينَ ، وَإِلَ جَدِيدٍ .

من الذاكرة

فِي السَّنَوَاتِ التَّالِيَةِ ، وَطَوَالَ أَكْثَرِ مِنْ رُبْعِ قَرْنٍ ، رَاحَ
« دَاوُدُ » يُمْلِئُ عَلَى ابْنِ عَمِّهِ ، وَمِنْ ذَاكِرَتِهِ الْقَوِيَّةِ الْعَجِيبَةِ ،
كِتَاباً فِي ثَلَاثَةِ مُجَلَّدَاتٍ ، عَنِ الْأَدْوِيَةِ الْمَفْرَدَةِ ، وَالْمُرَكَّبَةِ ، مِنْ
النَّبَاتَاتِ ، وَالْمَعَادِنِ ، وَالْحَيَوَانَاتِ ، وَنَادِراً مَا كَانَ يَتَوَقَّفُ ،
لِيَتَشَبَّهَ لِنَفْسِهِ وَلِلْعِلْمِ مِنْ أَمْرِ شَكٍّ فِيهِ ، أَوْ غَابَ عَنْهُ ، فَيَطْلُبُ
مِنْ ابْنِ عَمِّهِ أَنْ يَفْتَحَ لَهُ مَرْجِعاً بَعِينَهُ ، وَيَقْرَأَ لَهُ فِي فَصْلِ بَعِينِهِ ،
مَعْلُومَاتٍ بَعِينَهَا ، عَنْ نَبَاتٍ ، أَوْ حَجَرٍ ، أَوْ مَعْدِنٍ ،
أَوْ حَيَوَانٍ . ثُمَّ يُوَاصِلُ الْإِمْلَاءَ مِنْ جَدِيدٍ ، عَنْ أَنْوَاعِ الْعَطَارَاتِ



عند العشابين : العِطَارَاتُ المُرَّةُ ؛ والأَفَاوِيهِ (التوابل) ؛
والْبَلَّاسِيمُ ؛ والعِطَارَاتُ المُسَهِّلَةُ والمُليِّنَةُ ؛ والقَابِضَةُ ،
والعِطَارَاتُ المنوِّمةُ والمُخَدِّرةُ .. عن : الكينا ، وجَوْزِ القِيءِ ،
والهَنْدُبَاءِ ، والدَّاثُورَةِ ، والخَشْخَاشِ ، والكُسْكُرَةِ ، والبُنِّ ،
والشَّايِ ، والحِلْبَةِ ، وعُودِ رِيحِ المَغْرِبِ ، وقِشْرِ الرِّمَّانِ ،
والعَكْنَةِ أو السُّورَنْجَانِ ، وعَرَقِ الذَّهَبِ .. وعن السَّنَامِكَةِ ،
والعَشْبَةِ ، والبَابُونَجِ ، والرَّاوِنْدِ ، والتمْرَهِنْدِي ، والخَرْدَلِ ،
والْحَنْظَلِ ، والصَّبْرِ .. وعن القِرْفَةِ ، والكَرْوَايَا ، والشَّمْرِ ،
والْيَنْسُونِ ، والكُزْبَرَةِ ، والكافُورِ ، والزَنْجَبِيلِ ، وجَوْزِ الطَّيِّبِ ،
والْبُهَارِ ، وكُبَابَةِ صِيْنِي ، والمَرِّ ، والجَاوِي والبَلْسَمِ ،
والْحَنْتِيَّتِ ، والمِيعَةِ السَّائِلَةِ ، والمُصْطَكِي ، والكَثِيرَا ، والعَنْبَرِ ،
والقَنَاوَسَقِ ، وآلافِ سواها من النباتات ، فضلاً عن المعادن ،
وأجزاء الحيوانات .

ملح الطعام

وحين وصل « داود » إلى ملح الطعام ، قال لابن العمِّ :
اكتب يا أحمد .
فضحك « أحمد » وقال :

- لم أَتَوَقَّفْ عَنِ الْكِتَابَةِ قَطًّا .

ولم يَضْحَك « دَاوُدُ » لِدُعَايَةِ ابْنِ الْعَمِّ . كَانَ رَأْسُهُ مَشْغُولًا
بِمَا سَيُمْلِيهِ . قَالَ :

« الْمِلْحُ إِمَّا مَعْدِنِّي ، وَيَسْمَى : الْبَرِّيُّ ، وَالْجَبَلِيُّ ،
وإِمَّا مَائِي (يَسْتَخْرَجُ مِنْ مِيَاهِ الْبَحِيرَاتِ وَالْيَنَابِيعِ وَالْبَحَارِ) .
وَيُطْلَقُ عَلَى : التَّنْكَارِ ، وَالْقَلَى ، وَالْبُورَقِي ، وَالْأَنْدَرَانِي (كُلُّهَا
أَنْوَاعٌ مِنَ الْمِلْحِ) . وَكُلُّهُ يَسْتَأْصِلُ (يَقْضِي عَلَى) الْبَلْغَمِ ،
وَالرُّطُوبَاتِ اللَّزْجَةِ ، وَالسَّدَدِ (فِي الشَّرَائِينِ) ، وَنَزْفِ الدَّمِ ،
وَوَجَعِ الْأَسْنَانِ ، وَاللَّحْمِ الْمَيْتِ ، وَيُذْمَلُ الْجِرَاحُ ؛ وَيُذْهِبُ
الْحَكَّةَ ، وَالْقُرُوحَ ، وَالْجُدَرِيَّ مَعَ الْأَدْهَانِ ، خُصُوصًا مَعَ
الزَّيْتِ ؛ وَيَمْنَعُ التَّحَمَّ ، وَفَسَادَ الْأَطْعَمَةِ ، وَيَحْسُنُ اللَّوْنَ ،
وَيَنْظِّفُ الْمَعْدَةَ ، وَيَقِي مِنَ الْجُدَامِ » .

لَيْتَ الشَّبَابِ

وَحِينَ انْتَهَى « دَاوُدُ » أَخَذَ « أَحْمَدُ » يَحْرُكُ أَصَابِعَهُ الْمَجْهِدَةَ ،
لِيَرِيحَهَا ، ثُمَّ قَالَ :

- قَرَأْتُ فِي الْكِتَابِ عَلَيْكَ عَنْ هَذَا كُلِّهِ . هُنَاكَ فِي تَرْكِيَا ،

وَفِي دِمَشْقَ ، وَهُنَا فِي مِصْرَ ، لَكِنْ حَافِظَتِي (ذَاكِرَتِي) لَمْ تَعِ
كُلَّ مَا أَمْلَيْتَهُ عَلَيَّ ، وَلَمْ تَمَيِّزْ بَيْنَ هَذَا وَذَاكَ .

فَضَحِكَ « دَاوُدُ » وَقَالَ :

- لَوْ كَانَتْ لَدَيْكَ ذَاكِرَةٌ مِثْلَ ذَاكِرَتِي ، وَلَوْ كَانَتْ لَدَيْكَ
الرَّغْبَةُ فِي التَّحْصِيلِ ، لَمَا وَجَدْتُ ابْنَ عَمِّ مِثْلِكَ ، أُمْلِي عَلَيْهِ ،
وَلَرُبَّمَا كُنْتُ قَدْ صِرْتُ ، أَنْتَ الْآخِرَ ، عَالِمًا بِالْذَّوَاءِ .
فَقَالَ ابْنُ الْعَمِّ :

- إِنِّي سَعِيدٌ بِصُحْبَتِكَ يَا دَاوُدُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ جَمَعْتَ
مَا تَفَرَّقَ فِي الْكُتُبِ ، وَمَيَّزْتَ بِالْخِبَرَةِ بَيْنَ مَا اخْتَلَفَتْ الْأَقْوَالُ
فِيهِ ، بَيْنَ الْأَطْبَاءِ ، وَعُلَمَاءِ النَّبَاتِ . لَكِنْ ..

فَقَالَ دَاوُدُ :

- مَاذَا يَا ابْنَ الْعَمِّ ؟

فَقَالَ « أَحْمَدُ » جَادًّا :

- كَبُرْنَا فِي السَّنِّ مَعًا يَا دَاوُدُ . وَبُودَ كُلِّ النَّاسِ ، أَنْ
يَعْرِفُوا مِثْلَنَا ، مَا يُعِيدُ الْقُوَّةَ إِلَى الْكُهُولِ وَالشُّيُوخِ .

فَضَحِكَ « دَاوُدُ » ضَحِكًا طَوِيلًا عَالِيًا ، ثُمَّ قَالَ :

- كل الناس .. أم .. أنت يا ابن العم ؟

وأضاف :

- عليك بالتوابل ، والينسون ، والقرنفل ، والقرفة ،
والنعناع ، والبقدونس ، والثوم ، والبصل ، والفلفل ،
والبهارات ، والشطة ، وجوزة الطيب ، وجذور الكرفس ،
فاجعلها في طعامك من العسل ، والبيض ، والحمام ، والشواء
(الكباب) ، والكلاوى ، واللوز ، والفول الأخضر ،
والأسمك ذات الأصداف . وعليك بفل البندق ، وزيته ،
والمسك ، والعنبر ، فاجعلها في شرابك . وإذا أردت أن تسلي
بين الطعام والطعام ، فعليك بأمر الخلول ، وأمثالها من ذوات
الأصداف . وارجع في هذا كله إلى ما أملتته عليك .

وبقيت المقدمة والذيل

ووضع « داود » عنواناً لكتابه هو : « تذكرة أولى الألباب
والجامع للعجب العجائب في علم الطب » . وحين اطلع عليه
رئيسُ بیمارستان الأسبق ، هاله الجهد الذي بذله « داود » في
تأليفه ، وقال :

- جعلت معارف العلاج والتداوى مشاعة بين كل الناس
يا داود ، ولم تتركها حكراً (وقفاً) على الأطباء . سوف
يكرهك الأطباء الذين أحبوك لذلك يا داود ، فمرضاهم سوف
يقلون عدداً .

فقال « داود » مهوَّنا الأمر :

- يا صاحبي . أكثر الناس في زماننا لا يعرفون القراءة
والكتابة ، ولن تقل حاجة الناس أبداً إلى الطبيب ، ليُشخص
لهم أمراضهم ، ويداويهم منها . وأظن أن كل ما فعلته ،
هو أنني أضفت جماعة من العطارين إلى الأطباء ، ليسعفوا
المرضى ، بما يحتاجونه من علاج في الأمراض اليسيرة ،
والوعكات العابرة ؛ وأنتى جمعت كل ما دوَّنه السابقون ،
وتفرق في بطون الكتب ، في كتاب واحد ، سيظل ،
فيما أرجوه ، مرجعاً للأطباء ، والصيادلة ، والعطارين .

وأضاف داود :

- على أن كتابي هذا ، حين فكرت فيه ، وجدته ينقصه
أمران ، سأتداركهما من الغد إن شاء الله .

فقال له رئيسُ بیمارستان الأسبق :

- وما هما هذان الأمران ؟

فقال « داود » :

- مُقدِّمة جامعة في صنوف العلوم ، وبحوث أخرى في علم الطب والأمراض ، وفي الأدوية المفردة والمركبة ، وبعض الفذلكات (النوادر) والأخبار ، لتكون في الكتاب ، مثل البهار في الطعام .

عندئذ قال ابن العم مغاضباً :

- إذن سنعيد كتابة ما كتبناه .

وضحك الثلاثة . وقال رئيس البيمارستان الأسبق :

- هذا أمر ، والأمر الآخر يا داود ؟

فقال « داود » :

- ذيل للكتاب ، يكون له خاتمة ، عنوانه : « تزيين الأسواق بتفصيل (ترتيب) أشواق العشاق » . فالمحبون في زماننا يعانون أمراض النفس من الحب ، وينشدون عندنا نحن الأطباء ، ولدى العطارين ، ما يُعينهم على النسيان والسلوى ، إذا عزَّ وصل الحبيب ، لسبب من أسباب الفقر والغنى ،

أو القبح والجَمال ، أو الصَّغر والكِبَر في السن ، والشرف والضَّعة . وسيكون هذا الذيل ، تلخيصاً لكتاب « محمد السراج » في هذا الموضوع .

تذكرة داود

نسخ الوراقون كتاب « داود » في الطب والصيدلة ، فتخاطفته أيدي الخاصة والعامة ، مع الأطباء والعطارين ، وسرعان ما نسوا اسم الكتاب ، وصار معروفا بينهم باسم « تذكرة داود » ، ونسوا معه كتاباً آخر لداود هو : « البهجة والدرر المتخبة في تشخيص الأذهان ، وتعديل الأمزجة » ؛ ورسائل (كُتَيَّات) عن حجر الفلاسفة (الذهب) ، وعن إدخال أحكام النجوم في علم الطب .

الإنسان .. والعلم

عام ألف وثمانية هجرية ، ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين ميلادية ، اجتمع حول « داود » في بيته بالأزهر ، عدد من تلاميذه ومحبيه ، وبينهم أطباء وعطارون ، وهواة للمعرفة الطبية . وراح « داود » يقول لهم حكماً ووصاياهم :

« يكفى العلم شرفاً أن الكل يدعيه ، وكفى الجهل ضعةً أن الكل يتبرأ منه » .

« الإنسان يحترم الإنسان بقدر ما يملكه من معرفة وعلم .
وتزداد قيمته إذا مارس مهنة التعليم والتأليف » .

« لقد ارتفع مستوى الإنسانية ، حينما استلم المسلمون مهنة الطب في العلم » .

« الإنسان إنسان بالقوة إذا لم يعلم ، فإذا علم كان إنساناً بالفعل » .

« عارٌ على من وهب النطق والتمييز ، أن يطلب رتبةً (مكانةً) دون الرتبة القصوى (العليا) في المعرفة » .

وسأله طبيب شاب ، قال له :

« ما الذى دفعك حقاً إلى تأليف كتابك » التذكرة « ،
فتصدت به لمهمة يهرب الكثيرون من القيام بها ؟

فقال له « داؤد » :

« حين دخلت مصر ، رأيت فقهاءً ، وهم مرجع الأمور الدينية ، يمشون إلى يهودى قليل الشأن في التطبيب ، وليس

بطبيب ، فعزمت على أن أجعل الطب علماً مشاعاً كسائر العلوم ، يُدرس ليستفيد به المسلمون .

فقال له الطبيب الشاب :

« لكن سفهاء لازموك ، وتعاطوا الطب على يدك ، ثم استغلّوا ذلك فأذوا الناس في أموالهم وأبدانهم ، طلباً للنفع والكسب ، بإطالة أمد (مدّة) العلاج .

فقال له « داؤد » :

« يا بُنى ، بى وبدونى ، ستجد فى كل مهنة ، فى كل بلد ، فى كل زمن ، من يفعل هذا الشر .

وتنهّد « داؤد » وقال :

« بسبب هذا البعض ممن لا ضمائر لهم ، لُمت « أبقرأط » يوماً وانتقدته ، لأنه عمّم مهنة الطب فى زمانه ، وأعطاهما لكل الناس ، ثم رجعت عن هذا اللوم والنقد ، ففساد البعض لا ينبغى أن يحجب الخير والنفع عن كل الناس ، ولا المعرفة عن بعض الناس ، دون بعضهم الآخر .

وكانت الساعة قد قاربت منتصف الليل ، فنهض زوّار

« داؤد » مستأذنين ، ليتيحوا له فُرصةً ليرُقَد قليلاً ، قبل صلاة الفجر ، ثم يغادر داره ، ليصحب قافلةً للحجاج ، مُسافرةً إلى مكةَ عبرَ سيناء .

في مكةَ أدّى « داؤدُ بنُ عمر الأنطاكي » فريضةَ الحجّ ، ولم يكذّ ينتهي منها حتّى وافاه الأجل ، وهو يُصلّي الفجرَ في المسجد الحرام . وعادَ الحجاجُ بدونه ، فحزنَ عليه أهلُ مصر ، وكانَ عزاءُهم فيه ، وسلواهم عنه ، في كتابه الخالد « تذكرة داود » .

وفي أرجاء الأرض ، وإلى عديدٍ من لغاتِ العالم ، في العصر الوسيط والحديث ، تُرجمت « تذكرة داود » ، وأعدّ الأطباء عنها التهذيبات ، ولها الملخصات .

وعن « داود » وكتابه « التذكرة » ، كتبت الموسوعات العالمية ، وكتب كثيرون من العلماء ومؤرخو العلوم ، والصيادلة ، في الشرق والغرب . بينهم « المُجيبى » في كتابه « نُخلاصة الأثر » ، و « حسن عبد السلام » في كتابه « ذخيرة العطار وتذكرة داؤد في ضوء العلم الحديث » ، و « جابر

الشكري » في كتابه « الكيمياء عند العرب » ، و « محمد فائز القصر » في كتابه « تاريخ النبات عند العرب » ، و « محمود الحاج قاسم محمد » في كتابه « الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم » ، و « عبد الحليم منتصر » في كتابه « تاريخ العلم ودور العلماء في تقدمه » ، و « بُروكلمان » ، و « فرنيه » و « لِكرك » في « دائرة المعارف الإسلامية » ، التي أعدها ونشرها الفرنسيون .

ولقد ظلت « تذكرة داؤد » المرجعَ في التداوى من الأمراض عدداً من القرون ، في مدارس ومعاهد وكليات الطب في أوروبا والعالم الإسلامي . وهو مرجعٌ جعلَ كلَّ ما قبله من مراجع يتوارى في الظلّ ، لدى الأطباء والعطارين .

ففي « التذكرة » صبَّ « داؤد » كلَّ معارف السابقين في التداوى ، وبنظامٍ مُحكمٍ جديد ، جمعَ فيه بينَ معارف العلوم الشتى ، الوثيقة الصلة ، بالطلب والصيدلة ، وسخرها لغرضٍ واحدٍ ، هو التداوى والعلاج بأدوية مستخلصة من النباتات ، وأجزاء الحيوانات ، والمعادن ، كان قد تصدّى لها قبله بالذكر ،

والشَّرح ، والاختِبار ، أطباءٌ وعلماءُ عِظام ، من اليونانيِّين ،
والفرس ، والهنود ، والمصريين ، والعرب ، والمستعربين
بالإسلام .

وفي عصرنا الحديث ، يشيع العلاج بالأدوية الكيماوية ،
مع مُستخلَصاتٍ طبيعيّةٍ طبيّةٍ من النباتات ، والمعادن ،
والحيوانات .

وفي العقود الأخيرة ، من القرن العشرين ، تعود ؛ إلى
مَسَرَحِ العلاج الطَّبِّي ، الأدويةُ الطبيّةُ الطبيعيّةُ ، لتنازع الأدويةَ
الكيماويةَ عرشها . وتُباعُ هذه الأدويةُ الآنَ في عديدٍ من
صيدليات أوربا ، طازجةً ومجفّفةً ، ويُقبَلُ عليها الناسُ في
صيدلياتٍ عربيّةٍ ، وعندَ العطارين ، تفادياً للآثارِ الجانيّةِ ،
للأدوية الكيماوية ، وهي عودَةٌ سيحتلُ فيها « داودُ بنُ عمرِ
الأنطاكي » وكتابه « التذكرة » مركزَ الصدارة ، التي كانت
لَهُما ، في القرونِ الخاليّةِ .

رقم الايداع

١٩٩٣ / ٥٠٩٠

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

الأنطاكي

آخر الصيادلة العرب العظام ، المعالجين بالأدوية الطبية الطبيعية .
عاش في القرن السادس عشر الميلادي ، وولد كفيف البصر على
ضفاف نهر العاصي ، وأجاد عدة لغات وجاب أنحاء تركيا
والشام ومصر طلباً للمعرفة . واستقر في مصر وعمل بها
رئيساً للصيادلة والبيمارستان وترك وراءه كتباً في الطب والدواء

أشهرها كتابه «تذكرة داود» في
ثلاثة أجزاء ، جمع فيه أكثر من
ثلاثة آلاف نبات . إنها قصة تثير
الفخار . يقرأها الصغار والكبار

صدر من هذه السلسلة :

- | | |
|------------------|----------------|
| ١ - ابن النفيس | ١١ - الدميري |
| ٢ - ابن الهيثم | ١٢ - ابن رشد |
| ٣ - البيروني | ١٣ - ابن ماجد |
| ٤ - جابر بن حيان | ١٤ - القزويني |
| ٥ - ابن البيطار | ١٥ - ابن يونس |
| ٦ - ابن بطوطة | ١٦ - الخازن |
| ٧ - ابن سينا | ١٧ - الجاحظ |
| ٨ - الفارابي | ١٨ - ابن خلدون |
| ٩ - الخوارزمي | ١٩ - الزهراوي |
| ١٠ - الإدريسي | ٢٠ - الأنطاكي |

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع في الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر